الكاتب المصرى

ربيع الأول ١٣٦٥ — فبراير ١٩٤٦

مجلد ٢ — عدد ٥

فى الحب

سيبسم لهذا العنوان قوم وسيعبس له آخرون ، وسيكون بين الباسمين من يبسم عن رضا لأنه يريد أن يقرأ عن الحب شيئاً ، ومن يبسم عن سخرية لأنه لا يرضى أن يكون الحب موضوعاً للحديث فى مجلة ينتظر منها الجد الصارم ولا يحب منها الإقبال على لغو الحديث . فأما العابسون فسيكون عبوسهم سخطاً خالصاً ؛ لأن حديث الحب لهو كله ، وما أكثر الصحف والمجلات التى تلهج باللهو وتغرق فيه !

ومع ذلك فقد كانت حياتنا فى العصر الأول أسمح من هذا كله وأكثر يسراً ، وكانت أحاديث الحب لا تثير سخطاً ولا عبوساً وإنما تثير رضا وابتهاجاً وتدعو إلى الروية والتفكير فى كثير من الأحيان . وقد مضى فى تاريخنا الأدبى والعقلى عصر لم يكن الحب فيه هزلا ولا دعابة ، وإنما كان جداً خالصاً لا يخلو من صرامة وحزم فى كثير من الأحيان . فلم يكن حب الغَزِلين فى شمال الحجاز وفى نجد لهواً ولا مجوناً ولا مصدراً للدعابة والفكاهة ، وإنما كان جزءا من جد الحياة اقتضته ظروف من السياسة والدين فدفع إليه الغَزِلون فى شىء من التصوف لعله خير ما يستحق البقاء من شعرنا العربى القديم . ونحن نقرؤه فنجد راحة إليه واستمتاعاً به لا يشوبهما مجون ولا يتصل بهما ميل إلى العبث واللهو ، وإنما تجد فيهما النفوس غذاء روحيًّا يرتفع بها عن صغائر الحياة ويعزيها عن هذه السفاسف اليومية التى تنزل بها عما تحب لنفسها من مكان رفيع . على أن هذا الهيام الذى شمل النفس العربية فى نجد وشمال الحجاز لم يتردد

فى أن يغزو البيئات الدينية والعلمية الصارمة الحازمة فى مكة والمدينة. فقد كان شعر جميل وكُثَيِّر والقيسين ينشد فى المسجد الحرام وينشد فى المسجد النبوى، ويستمع به فى هذين المسجدين المطهرين قوم وقفوا أنفسهم على رواية العلم والدين لا يجدون فى ذلك حرجاً ولا جناحاً؛ وربما تجاوز بعضهم هذا الاستمتاع بأحاديث الحب وما كان ينشد فيه من شعر إلى الحب نفسه؛ فشقى بالحب إن كان الحب شقاء، ونعم بالحب إن كان الحب نعيما، وذاق لذته المؤلمة وحلاوته المرة، إن صح أن تكون اللذة مؤلمة وأن تكون الحلاوة مرة.

وقد كان عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى صاحب قراءة للقرآن ورواية للحديث وإقبال على النسك والزهد وتفرغ للعبادة والطاعة، حتى لقّبه أهل مكة بالقس. فلم يمنعه ذلك حين رأى سلاّمة وسمع غناءها أن يحبها حبّا انتهى به إلى الهيام وجعله شاعراً غزِلاً كغيره من الشعراء الغزلين. لم يجد فى ذلك حرجاً ولا جناحاً؛ لأن ذلك لم يورطه فى إثم ولا فسوق. وعبد الرحمن بن أبى عمار القس هو الذى يقول فى سلامة هذين البيتين الرائعين:

سلام هل لى منكمُ ناصرُ ... أم هل لقلبى عنكُم زاجرُ
قد سمع الناس بوجدى بكم ... فمنهم اللائم والعاذر

ويزعم الرواة أن سلامة أحبّت القس وحببت إليه، وهمّت ذات يوم أن تقبّله أو ان تضع فمها على فمه كما يقول الرواة، ولكنه امتنع عليها مؤثراً نقاء القلب وصفاء الضمير، مشفقاً أن ينعم بحبها فى الدنيا فيشقى بحبها فى الآخرة ويصبح من هؤلاء الأخلاّء الأعداء الذين ذكرهم القرآن الكريم.

وقد آثر ابن عباس رحمه الله، كما يعرف الناس جميعاً، أن يسمع لغزل ابن أبى ربيعة على أن يسمع لأسئلة نافع بن الأزرق فى الفقه والحديث وتفسير القرآن. فقد كان القدماء أسمح منا نفوساً وأحسن منا استقبالا لأمور الحياة، يعنفون بأنفسهم فى مواضع العنف، ويرفقون بها فى مواطن الرفق، ولا يتكلفون هذا الجد السخيف والتزمت الذى لا يدل على شئ. وأنا بعد هذا كله لا أريد أن أتحدث عن الحب مرغِّباً فيه أو مرغباً عنه محسناً له أو زارياً عليه، بل لا أريد أن أتحدث عن الحب فى نفسه، وإنما أريد أن أتحدث عنه من حيث إنه كان موضوعاً للبحث والدرس والتأليف عند أديبين عظيمين: أحدهما عربى مسلم قديم، والآخر أوربى

مسيحى حديث . فأما أولهما فهو ابن حزم الأندلسى . وأما ثانيهما فهو ستندال الفرنسى . فقد عاش أولهما فى القرن الحادى عشر ، وعاش ثانيهما فى القرن التاسع عشر ، فبينهما نحو ثمانية قرون . وهما بعد ذلك يختلفان أشد الاختلاف ولا يكادان يتفقان إلا فى الشىء اليسير جدًّا .

فابن حزم مسلم متعمق للإسلام يؤمن به إيماناً صادقاً متيناً يرتفع به إلى شىء يوشك أن يكون نسكاً . وهو قد وقف حياته أو أكثر حياته على تعمق العلوم الإسلامية والعربية ؛ فهو متقن لرواية الحديث ، محسن للفقه ، متخصص فى الكلام متفوق فى الجدل ، عالم بشؤون الفِرَق الإسلامية مهاجم لأكثرها مدافع عن أقلها ، منافح عن الإسلام ، ناقد لما ورث المسيحيون واليهود من المسيحية واليهودية ، عارض لكل مسألة من مسائل الدين بالدرس والنقد والتحليل ، مظهر رأيه فيها ، مؤيد له بما يرى أنه الحجة القاطعة والبرهان الساطع الذى لا يمكن الشك فيه . فهو بذلك رجل من رجال الدين ، ومن رجال الدين الذين وقفوا أنفسهم وحياتهم على درسه واستقصائه والذود عنه والقيام من دونه .

وهو صاحب مذهب بعينه فى الدين ليست عليه كثرة المسلمين ؛ فهو ظاهرى يؤثر النص ويكره التأويل ، ولا يحب التأول ولا يميل إلى التأويل . وهو من أجل ذلك لا يخاصم فى الكلام وحده وإنما يخاصم فى الفقه أيضاً . وهو من أجل ذلك متقن للغة أشد الاتقان ، متعمق لكل ما يتصل بها من علم أشد التعمق . فهو لغوى ، وهو نسابة ، وهو راوية للشعر والأدب والأخبار . ثم هو قبل هذا كله من أسرة قد تولّت الوزارة واتصلت بالقصور وعملت فى الدواوين ودبّرت أمور السياسة ؛ وقد شارك فى بعض ما نهضت به الأسرة من الأعباء . ولكنه صرف نفسه عن السياسة ، أو صرفته الظروف عن السياسة إلى العلم ، فأحاط بكل ما كانت تتكون منه الثقافة الإسلامية العربية فى ذلك الوقت .

ثم لم يكتف بأن يكون عالماً ممتازاً ، بل أراد أن يكون معلماً ممتازاً أيضاً ، ومؤلفاً ممتازاً كذلك ، هذا هو ابن حزم .

أما ستندال فقد نشأ فى عصر الثورة الفرنسية ، وشارك فى الخطوب السياسية والعسكرية التى امتلأ بها عصر نابليون وقاتل فى غير موقعة من مواقع هذا القائد العظيم ، وشهد الأحداث الكبرى التى اضطربت لها فرنسا ثم اضطربت لها أوربا ثم اضطرب لها العالم كله فى آخر القرن الثامن عشر وفى النصف

الأول للقرن التاسع عشر . وهو بحكم نشأته وبيئته والعصر الذى عاش فيه مسيحى اللون حر الضمير واسع الثقافة إلى أبعد حد ممكن . ولكنه لم يكن وزيراً ولم يحاول أن يكون وزيراً ، ولم يكن معلماً ولم يحاول أن يكون معلماً ، وإنما عاش لنفسه أولاً ، ومنح قلباً ذكيًّا وعقلا خصبا وضميراً حيًّا ونبوغا فنيًّا ممتازاً ، فلم يجد بدًّا من أن يصور حياته وحياة الناس من حوله وحياة العصر الذى عاش فيه .

فالاختلاف بين هذين الرجلين بعيد إلى أقصى غايات البعد ، ولكنهما على ذلك يلتقيان فى بعض الأمر . فكلاهما أوربى المولد والنشأة : ولد ابن حزم ونشأ وعاش فى أسبانيا ، وولد ستندال وعاش فى فرنسا وغيرها من البلاد الأوربية .

وقد ذكرت آنفاً أن ابن حزم عربى مسلم . وما أردت بعروبته هذا المعنى الضيق الذى يتصل بالجنس والنسب ؛ فقد يقال إن ابن حزم لم يكن عربيًّا صليبة ، وإنما أردت هذه العروبة التى تتصل بالثقافة والسياسة والدين واللغة والنشأة وهذه الخصال التى هى أهم ألف مرة ومرة من الجنسية والعنصرية .

فقد كان الرجلان إذن أوروبيين ، ولكن أحدهما عربى الحياة ، والآخر فرنسى الحياة ؛ وأحدهما من أبناء القرن الحادى عشر ، والآخر من أبناء القرن التاسع عشر . وقد كان الرجلان يلتقيان فى شئ آخر ، فكلاهما عاش فى عصر فتنة واضطراب عاش ابن حزم فى عصر انهيار الدولة الأموية فى الأندلس وانتثار النظام السياسى فى هذا الجزء من أوربا ، وقل إن شئت فى هذا الجزء من العالم الإسلامى القديم . وقد شهد ابن حزم انتقال السلطان من بنى امية إلى حجابهم ، ثم انهيار الأمر حول هؤلاء الحجاب ، وقيام ملوك الطوائف ، وتدخل البربر فى شؤون العرب الأسبانيين . ثم هو لم يشهد ذلك من برجه العاجى ، وإنما شهده شهود المشارك فيه ، المصطلى بناره ، المتحمل لآثاره ، فذاق السجن ونفى من الأرض وتقاذفته مدن الأندلس ، بل تقاذفته مدن العالم الإسلامى الغربى ؛ فهو قد عبر إلى إفريقية ، وهو قد عبر إلى الباليار ، وهو قد لقى فى هذا كله ألوانا من المحن وضروبا من الخطوب .

وعاش ستندال فى عصر الثورة وفى عصر الحروب التى أثارها نابليون أو أثيرت عليه ، وشارك فى هذه الحروب فانتصر حين انتصر نابليون وانهزم حين انهزم نابليون . واضطرته هذه الحروب إلى التقلب فى أقطار أوربا ، فذهب إلى

ألمانيا والنمسا والروسيا وأقام فى إيطاليا فأطال الإقامة وعاد آخر الأمر إلى فرنسا .

وليس المهم بالقياس إلى هذين الرجلين أنهما عاشا فى عصر الفتنة والاضطراب وتأثرا بهما فى حياتهما المادية ، وإنما المهم أن كليهما قد منح حسًّا دقيقاً وشعوراً رقيقاً وعاطفة ثائرة ومزاجاً حادًّا وذوقاً رفيعاً ، فتأثر بهذه الفتنة وتأثرا بهذا الاضطراب ، وعاش عيشة سخط وشذوذ وقلق لا عيشة رضا واطمئنان وحرص على ملاءمة الجيل الذى كان يعيش فيه .

كان ابن حزم شاذا فى أسبانيا المسلمة المضطربة . وكان ستندال شاذا فى فرنسا المسيحية الثائرة . وكان كلاهما ساخطاً على مايرى ، منكراً لما يشهد ، عاكفا على نفسه يتسلى بعلمه وأدبه عما يجرى حوله من الخطوب .

فى هذا كله كان الرجلان يختلفان ويتفقان . ومن هنا فرغ ابن حزم لعلوم اللغة والدين ، وفرغ ستندال للقصص والإنشاء الأدبى الخالص . ولكن ابن حزم ألّف كتابا فى الحب ، وستندال ألّف كتابا فى الحب أيضاً . ومن النافع أن نقف عند هذين الكتابين وقفة قصيرة ؛ فقد يكون من المفيد أن نرى كيف عُنِى الأديب المسلم القديم والأديب المسيحى الحديث بهذا الأمر الخطير الذى هو الحب .

وإذا قلت إن الحب أمر خطير ، فإنما أصدر فى ذلك عن ابن حزم من جهة وعن ستندال من جهة أخرى . ولست فى حاجة إلى أن أصدر فى ذلك عن شعر الشعراء ولا عن أدب الأدباء ولا عن الحياة نفسها ؛ لأنى لا أكتب فصلا فى الحب من حيث هو ، وإنما أكتب فصلا فى الحب كما صوره هذان الأديبان .

والظاهر أن الحب قد كان خطيراً حقًّا فى أسبانيا المسلمة أيام ابن حزم . وليس أدل على ذلك من أن هذا المحدِّث الفقيه المتكلم الفيلسوف المنفى من أرض وطنه قد فرغ لكتابة رسالة فيه . وهو لم يفرغ لكتابة هذه الرسالة إلا لأن صديقا من أصدقائه الفقهاء المحدِّثين المتأدبين قد طلب إليه أن يكتب هذه الرسالة . فلولا أن الأمر له شئ من خطر لما طلب هذا الفقيه المحدِّث الأديب إلى ابن حزم أن يفرغ له ويكتب فيه ، ولما أجاب ابن حزم إلى ماطلب إليه وهو على جناح سفر قد أزعج عن وطنه واستقر فى شاطبة لينتقل منها إلى منفى آخر . ثم نحن نقرأ كتاب ابن حزم فنرى أن الحب قد شغل ابن حزم فى حياته كلها كما شغله الفقه والتفسير والحديث والكلام ونقرأ كتاب ابن حزم فنرى أن

الحب لم يشغله وحده ولم يشغله مع صاحبه الذى طلب إليه تأليف الكتاب وحدها ، وإنما الظاهر أنه كان يشغل الناس جميعاً فى أسبانيا المسلمة لعهد ابن حزم . ولعله كان يشغل المثقفين والممتازين أكثر مما كان يشغل غيرهم من الناس .

أما فى فرنسا فالحب شىء خطير فى كل وقت لا يحتاج ذلك إلى دليل . ولكنك سترى أن ستندال لم يكن يقدر الحب كما ألِفه مواطنوه الفرنسيون .

أكاد أعتقد أن فى نفوسنا من أسبانيا المسلمة صورة غير مطابقة للحقيقة الواقعة أثناء القرن الخامس للهجرة على أقل تقدير . فنحن نقرأ فقها وفلسفة حديثا وكلاما وتفسيرا ولغة ، ونحن نقرأ أخبار الفتن والحرب فيخيل إلينا أن أسبانيا المسلمة قد كانت فى القرن الخامس موطن الجد المظلم والثورات المنكرة والاختلاف المؤذى للنفوس ، لانكاد نستثنى من ذلك إلا هذه البيئات الخاصة التى كانت تمتاز بالعكوف على اللذات والانصراف إلى الشعر والموسيقى والغناء . ولكن ابن حزم يعطينا فى كتابه « طوق الحمامة » صورة أخرى لأسبانيا المسلمة فى ذلك العهد صورة وطن كان الناس فيه جميعا يذوقون الحب ويبلون لذاته وآلامه ، يتعرضون له كما يتعرضون لغيره من محن الحياة ، بل يتعرضون له كما يتعرضون للموت ، لافرق فى ذلك بين أصحاب الجد منهم وأصحاب الهزل ، ولا بين الذين يفرغون للعلم والدين والذين يفرغون للأدب والفن والذين يفرغون للسياسة والحرب .

وأكبر الظن أن أمور الناس كلهم تجرى على هذا النحو فى جميع أقطار الأرض . ولكن حظوظ الناس من الحرية فى تصوير هذا والتعبير عنه تختلف باختلاف الأوطان والبيئات والظروف . والظاهر أن أسبانيا المسلمة كانت على حظ عظيم لا فى الحب وحده بل فى التحدث عن الحب أيضاً . ومن الحق أن ابن حزم تحرَّج شيئاً أوكاد يتحرج شيئاً من الكتابة فى هذا الموضوع ، ولكنه لم يلبث أن يُعْفِىَ نفسه من هذا الحرج بآثار رواها فى أول الكتاب ومحض على الطاعة ونهى عن المعصية وترغيب فى الفقه سجّلها فى آخر الكتاب . فقد روى ابن حزم بسنده المتصل إلى أبى الدرداء رحمه الله أنه كان يقول : « أَجِمُّوا النفوس بشىء من الباطل ليكون عونا لها على الحق » . وروى آثاراً أخرى عن جماعة من السلف الصالح رحمهم الله .

وكان هذا أشبه باستئذان للدخول فى هذا الموضوع الخطير الذى يظهر أن ابن حزم فكر فيه وعاش معه منذ نشأ إلى أن مات . وأخص ما يتفق فيه

ابن حزم وستندال أنهما لم يريدا أن يكتبا فى الحب كتابة المتزيد المتكلف، وإنما أرادا أن يكتبا فيه كتابة العالم الذى يؤثر البحث والاستقصاء، ويعتمد على الملاحظة والمشاهدة؛ ويستنبط من هـذا كله أصولا وقواعد هى أشبه بالعلم وأقرب إليه من شبهها بالأدب وقربها إليه. فليس الذى يعنيهما أن يرويا الأخبار ولا أن يستنبئا الخيال ولا أن يفلسفا فى غير موضع للفلسفة، وإنما الذى يعنيهما أن ينظرا إلى الواقع ويعمدا إليه ويأخذا منه فى غير تكلف ولا تصنع ولا احتيال. ثم هما بعد أن يتفقا فى هذا كل الاتفاق يختلفان فيه كل الاختلاف أيضاً كلاهما يريد العـلم ويعتمد على الظواهر الواقعة. ولـكن أحدهما يعيش فى القرن الحادى عشر، والآخر يعيش فى القرن التاسع عشر، وبين حياة العقل الانسانى فى هذين العصرين أمد بعيد. فابن حزم يعيش فى عهد الـكلام وما بعد الطبيعة، وستندال يعيش فى عهد العلم والتجربة. فليس غريباً أن يكون ابن حزم فيلسوفاً حين يفسر الظواهر الواقعة، وأن يكون ستندال عمليًّا حين يفسر هذه الظواهر نفسها.

ومن هنا عمد ابن حزم إلى تعريف الحب كما كان الناس فى عصره يعمدون إلى تعريف كل شىء. وعمد إلى تعريفه على النحو الفلسفى الذى ألفـه أصحاب المنطق؛ فهو يثبت قبل كل شىء أن الحب حقيقة واقعة لا منصرف عنها ولا تخلص منها، وأنه من أجل ذلك شىء مباح لا ينكره الدين ولا العرف ما دام لا يتجاوز حدود الدين والعرف. وهو يذكر الحب الذى ألمّ بطائفة من خلفاء بنى أمية فى الأندلس ومن خلفاء الفاطميين فى مصر، والحب الذى ألمّ ببعض الفقهاء من أبناء الصحابة والتابعين وما أفتى به ابن عباس رحمه الله فى بعض الأمور التى تتصل بالحب. ثم يذكر بعـد ذلك « مائية الحب » كما يقول، وهى كلمة يأخذها من « ما »، وهى توازى كلمـة « الماهية » عنـد الشرقيين من أصحاب المنطق والفلسفة. كأن الشرقيين يأخذون كلمتهم من «ما هو»، وكأن ابن حزم وأصحابه الأندلسيين يأخذون كلمتهم من « ما » وحدها، فيجعلون الألف همزة حين ينسبون. ومائية الحب كما يقول ابن حزم أو ماهيته كما يقول الشرقيون هى عند ابن حزم « الاتصـال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ». كان ابن حزم يذهب إلى ما ذهب إليه بعض الفلاسفة من قدماء اليونان من أن هناك عنصراً رفيعاً تأتلف منه نفس واحدة

قد قسمت أجزاؤها على المخلوقات ذوات النفوس . فقد يحدث اتصال بين بعض هذه الأجزاء المقسمة بين الناس فيكون الحب ، وقد يحدث انفصال فيكون البغض . وبمقدار ما يكون الاتصال قويًا أو ضعيفاً يقوى الحب أو يضعف . وبمقدار ما يكون الانفصال قويًا أو ضعيفاً يشتد البغض أو يلين .

وهذا الاتصال إنما هو ملاءمة فى الشكل وتشابه فى الطبع وحنين جزء من النفس إلى جزء آخر من النفس ، والأعراض الطارئة هى التى تباعد بين هذه الأجزاء أو تتيح لها ان تقترب وتأتلف . وابن حزم لا يحب أن يذهب مذهب إمامه محمد بن داود الظاهرى ومذهب غيره من الفلاسفة الذين يرون أن النفوس كرات مستقلة تستقر فى المخلوقات إلى حين ، وإنما هو يرى أن النفوس أجزاء من نفس واحدة قد قسمت على المخلوقات إلى حين ، ثم هى تعود إلى أصلها ، وإن كان ابن حزم لم يصرح بهذه العودة فى هذا الكتاب . والشىء المهم هو أن الحب عند ابن حزم لا يأتى من الأجسام وإنما يأتى من النفوس . وليست الأجسام فى حقيقة الأمر إلا وسائط ووسائل تتيح للنفوس أن تتقارب أو أن تتباعد . وآية ذلك أن من الناس من يحب شخصاً تنقصه هذه الخصلة أو تلك من خصال الجمال الجسمى وهو يعلم أن بين الناس من يستوفون خصال الجمال كلها أو أكثرها ومن يزيدون على محبوبه فى هذه الخصال . فلو كان الجمال الجسمى مصدر الحب لما أمكن أن يحب الإنسان شخصاً قبيحاً أو منقوص الحسن ، ونحن نعلم أن العاشقين لمن لا يبلغ الحسن فيهم أقصاه ولمن يقدر عليهم القبح ليسوا قليلين . ولا تفسير لذلك عند ابن حزم إلا أن الحب ظاهرة تتصل بالنفوس ولا تتصل بالأجسام إلا اتصالا عارضاً . فنحن هنا أمام بحث فلسفى يتصل بما بعد الطبيعة أكثر مما يتصل بالطبيعة نفسها ، أو قل إنه يتخذ الطبيعة سُلَّماً يرقى فيه إلى ما بعد الطبيعة . وليس شىء من هذا كله غريباً ؛ فابن حزم يعيش فى القرن الحادى عشر ، والعلم عنده ما ورث عن الفلاسفة والمتكلمين .

فأما ستندال فهو لا يعمد إلى التعريف ولا يفكر فى الاستنباط المنطقى ، وإنما يعمد إلى الاستقراء والاستقصاء . فهو لا يعرف الحب جملة وإنما يستقصى أنواع الحب عند أفراد الناس وعند أصنافهم . وهو يضع أصلا فى أول كتابه لا يكاد يحققه حتى يشك فى دقته ويفتح باب الاستقراء والاستقصاء من جديد . فليس هناك حب واحد إذن ، وإنما هناك أنواع أربعة من الحب : أولها الحب الجامح

الذى يملك على النفس أهواءها وعواطفها وحسها وشعورها، والذى يندفع كالسيل لا يلوى على شىء ولا يترك لصاحبه حظًّا من أناة أو روية أو تفكير. والثانى الحب المترف الذى ينشئه التكلف وما تقتضيه الحضارة الراقية المصفاة من إتراف فى الذوق وتأنق فى فنون المتاع، والذى لا يكاد يتصل بالنفس ولا بالقلب، ولا يكاد يؤثر فى العاطفة أو فى الشعور، وإنما هو لون من ألوان الذوق وفن من فنون الترف، قد وُضعت له قواعده وأصوله، وأحاط الناس بأسراره ودقائقه، فهم يصعدون فيه عن علم وينتهون إلى غايته عن بصيرة. والثالث الحب الجسدى الذى تدفع إليه الغرائز والذى يشترك فيه الإنسان والحيوان والرابع حب الغرور الذى ينشأ عن الكبرياء وإيثار النفس بهذه الظواهر الخداعة التى يكبر بها الإنسان أمام نفسه وإن لم يكبر بها فى أنفس الناس. وقد مثل ستندال لأنواع الحب هذه بأمثلة تصورها تصويراً صادقاً وتدل عليها دلالة واضحة. فأبطال الحب المعروفون الذين تحدَّث عنهم التاريخ يصورون النوع الأول. والمترفون من الفرنسيين أثناء القرن الثامن عشر يصورون النوع الثانى. والصائد الذى يشتهى قروية رآها تهيم فى الغابة فأعجبه شكلها يصور النوع الثالث. وكثرة الشعب الفرنسى فى عصر ستندال تصور النوع الرابع. على أن ستندال لا يلبث أن يلاحظ أن هذا التقسيم ليس دقيقاً ولا نهائيًّا، وأن من الممكن أن ينحل كل نوع من هذه الأنواع الأربعة إلى أنواع أخرى جزئية يُدَلُّ عليها بألفاظ أخرى. فأمور الحب أشد دقة وأكثر اختلافاً وأيسر تفاوتاً من أن تستقصى على نحو قاطع محتوم. وليس المهم عند ستندال أن تُحْصَى أنواع الحب أو تستقصى، وإنما المهم أن نتبين كيف ينشأ الحب وكيف ينمو وكيف يضعف وكيف يموت. وستندال يرى أن هذا كله إنما يجرى طبقاً لقوانين يعرضها فى هذا الكتاب. والإعجاب هو أول درجة من درجات الحب ترقاها النفس حين تتجاوز نظرتها العادية البريئة من الاكتراث إلى الشخص الذى كتب لها أن تحبه، فهى تبدأ بالخروج عن عدم الاكتراث إلى التفات خاص لا يكاد يتم حتى ينشأ عنه إعجاب يقف النفس عند هذا الشخص الذى التفتت إليه. ولا يكاد هذا الإعجاب يتصل حتى ترقى النفس فى هذا السلّم إلى درجة أخرى، وهى درجة التوق أو الشوق أو الطموح إن شئت. وهى الدرجة التى يقول فيها الإنسان لنفسه، أحبِبْ إلى بأن أقبِّل هذا الشخص أو بأن يقبلنى؛ فهو طموح إلى الاتصال المادى بعد أن تم الاتصال النفسى.

ثم يرقى الإنسان إلى الدرجة الثالثة . فأنت تستطيع أن تتوق وأن تشتاق وأن تطمح ، ولكن هذا كله شىء وانتظار الوصول إلى ما تطمح إليه شىء آخر . فإذا تجاوزت الطموح إلى الأمل فقد ارتقيت إلى الدرجة الثالثة فى تصعيدك إلى الحب . ثم لا يكاد يستقر الأمل فى نفسك ، أو لا تكاد نفسك تستقر فى الأمل ، حتى تبلغ الدرجة الرابعة ، وهى الدرجة التى يتم فيها تكوين الحب . فأنت قد أعجبت ثم اشتقت ثم أملت ثم استحال هذا كله فى نفسك إلى لذة قوية تحدث بمجرد أن ترى من تحب أو أن تسمعه أو أن تمسه أو أن تتصل بسبب من أسبابه . وأنت إذا وجدت هذه اللذة معرض لأن تجد الألم إذا انقطعت الأسباب بينك وبين من تحب . وكذلك لاتبلغ الدرجة الرابعة حتى تضطرب بين مايحدث الحب من لذة وألم ومن نعيم وجحيم . وإذا وجد الحب فلا بدّ له من أن ينمو إلا أن يقتل يوم مولده ونموه . يبدأ حين تبلغ الدرجة الخامسة ، وهى ما يسميه ستندال التبلور الأول ، ومنشؤها اتصال تفكيرك فيمن تحب . فأنت لا تفكر فيه كما هو قبل أن تلتفت إليه ، أو قل إنك لا تفكر فيه كما يفكر فيه غيرك من الناس الذين لا يحفلون به ولا يأبهون له ، وإنما تسبغ عليه شيئاً من إعجابك به وشوقك إليه وأملك فيه ، وإذ أنت تضيف إليه محاسن تزعم أنها لا توجد فى غيره ، وإذا أنت تقوى شعورك بالغبطة حين تتصل به بمقدار ما تضيف إليه من المحاسن . فهو وحده الذى يستطيع أن يرضى ما تطمح إليه نفسك من المثل العليا فى اللذة والسعادة والنعيم . وغيره لا يقدر على أن يبلغك من هذا كله شيئا ؛ لأن هذا كله موصول بما خلعت على محبوبك من المحاسن والخصال التى ميزته بها من الناس جميعاً . وكذلك تتصل نفسك به اتصالا قويًّا متيناً غير مقطوع ، وإذا أنت حريص أشد الحرص على استبقاء هذا الاتصال والتزيد منه فى كل لحظة ما وجدت إلى ذلك سبيلا . وإذا بلغت هذا الحرص فليس لك بدٌّ من أن ترقى إلى الدرجة السادسة ؛ فالحرص مصدر الخوف والشك . ومتى انتهيت من الحرص إلى غايته فلا بد لك من أن تشك فى أنك موفق أو غيرموفق . وأنت فى هذه الدرجة السادسة تسأل نفسك بين لحظة ولحظة ، أيجد حبك صدى فى نفس محبوبك أم لايجد ؟ ثم أنت لا تكتفى بهذا السؤال ، ولا تطمئن إلى هذا الشك . ومتى اطمأن الإنسان إلى الشك ! إنما أنت مضطر إلى أن تلتمس الدليل القاطع على أنك لم تخطىء فيما قدرت ولم تخفق فيما طلبت وعلى أن محبوبك يقارضك حبا

بحب ويبادلك هياماً بهيام . وأنت كذلك تسأل نفسك ثم تجيب نفسك ثم تشك فى الجواب فتستأنف السؤال . فإذا طال عليك هذا الأمر وظفرت بالإشارة الدالة أو اللمحة المطمعة أو الآية المقنعة فأنت راق على رغمك إلى الدرجة السابعة وهى التبلور الثانى كما يسميها ستندال .

فأنت قانع بأنك محبوب ، وأنت تزين لنفسك هذا الحب الذى تجده والذى تطمئن إلى أن له صدى فى نفس من تحب ، تخلع على هذا الحب من صفات القوة والسعة والعمق والجمال ما شئت وما لم تشأ . ثم يصبح هذا الحب حياتك التى تملك عليك كل شىء ، وتصرفك عن كل شىء وتأخذ عليك طريقك . وقد انتهيت الآن إلى قمة الحب ، فلم يبق إلا أن يتصل نعيمك به أو شقاؤك ، بما يمكن أن يعرض له من الضعف والفتور .

كذلك يعرض ستندال مقدمات الحب ونشأته ونموه وبلوغه إلى أقصى غاياته . ثم هو يعود إلى هذه الدرجات بعد ذلك فيدرسها درساً مفصلا عميقاً يضرب له الأمثال ويستدل عليه بالوقائع . فهو كما ترى بعيد كل البعد عما بعد الطبيعة ، قريب كل القرب من الطبيعة نفسها ، لا يلتمس للحب حداً ولا رسماً ولا تعريفاً ، وإنما يميز أظهر أنواعه ثم يتبعه منذ تتهيأ النفس له إلى أن تفنى النفس فيه . وواضح جداً أن ستندال حين يسلك هذه الطريق إنما يذهب مذهب العلماء المعاصرين له الذين تأثروا بنشأة العلوم التجريبية وتطورها ، فاعتمدوا على الملاحظة المباشرة أكثر مما اعتمدوا على أى شىء آخر .

وقد هم ابن حزم أن يسلك هذه الطريق نفسها ، بل هو لم يسلك إلا هذه الطريق ، طريق الملاحظة المباشرة ؛ فهو لا يخترع أحاديثه عن الحب اختراعاً ولا يبتكرها ابتكاراً ولا يخلقها من عند نفسه ، وهو لا يكاد يلم بالفلسفة إلا حين يحاول تعريف الحب . وهو لا يقرر أصلا من الأصول ولا فرعاً من الفروع إلا مستمداً له مما رأى بنفسه أو مما وجد فى نفسه أو مما سمع من الذين لا يعرض الشك له فيما يلقون إليه من الأحاديث . فابن حزم معتمد على الملاحظة المباشرة كما يعتمد عليها ستندال ، ولكن ابن حزم لا ينتفع من ملاحظته المباشرة كما ينتفع بها ستندال . فبين الرجلين دهر طويل تطور فيه العقل الإنسانى وتطورت فيه مذاهب البحث ومناهجه ووسائل الملاحظة وأدواتها تطوراً عظيما بعيد المدى . فلاحظة ابن حزم دقيقة كملاحظات ستندال ، ولكنها قريبة لا تتعمق ولا تكاد

تتجاوز نفسها إلا قليلا ؛ لأن ابن حزم لم يظفر من أدوات البحث والاستقصاء والتعمق بمثل ما ظفر به الكاتب الفرنسى الحديث .

وبين الرجلين فرق آخر ، وهو أن ابن حزم على شذوذه الذى لفت إليه المعاصرين جميعاً فى الشرق والغرب ، بل لفت إليه الذين جاءوا بعده بوقت طويل ، لم يستطع أن يخلُص من العادة المألوفة فى التفكير والاستنباط ؛ فهو قد فكر كما كان الناس يفكرون من حوله بل كما فكر الناس من قبله ومن بعده ، واستنبط كما كانوا يستنبطون ، لم يستطع أن يتجاوز ذلك ؛ لأن وقت تجاوزه لم يكن قد آن ، ولأن وسائل هذا التجاوز لم تكن قد استكشفت بعد .

وقد يكون من الغريب أن ابن حزم قد صرّح أكثر مما صرح ستندال . فستندال يزعم صادقاً أو غير صادق — ومن المحقق أنه غير صادق — أنه لم يتخذ نفسه موضوعاً للملاحظة فى أى فصل من فصول كتابه ؛ فهو لم يتحدث عن نفسه ولا عن عواطفه وشعوره بحال من الأحوال . أما ابن حزم فيحدثنا عن نفسه فى صرامة رائعة حقًّا ، ولعل أحاديثه عن نفسه هى خير ما اشتمل عليه الكتاب . وليس عليه من ذلك بأس ؛ لأنه يحدثنا صادقاً من غير شك أنه لم يقترف فى الحب إثماً ولم يورطه الحب فى خطيئة كبيرة من الكبائر .

وهو من أجل ذلك يحدثنا عن نفسه فى صراحة وإسماح ، ويقص علينا من أنبائه ما يثير فى نفوسنا كثيراً جدًّا من الرفق به والرثاء له والعطف عليه . فنحن نشهده فى دار أبيه الوزير وقد تعلقت نفسه بجارية من جوارى الدار رائعة الحسن ، بارعة الجمال ، قوية النفس ، صادقة العزم ، حازمة الجد ، لا تحب العبث ولا تميل إلى الدعابة ، وإنما تغرق فى الجد إغراقاً يكاد يدفعها إلى العبوس . وقد اجتمع أهل الدار فى يوم من الأيام التى يجتمعون فيها لبعض الأمر ، وقد ألمّ بهم ضيف فطعِموا ونعموا ، وأشرفوا من بعض أطناف الدار على البستان ينظرون إليه ثم إلى النهر ، ثم يمدون أبصارهم إلى أبعد من البستان وأبعد من النهر ، فيرون من قرطبة وضواحيها منظراً عجباً . وقد وقفت هذه الجارية عند باب من أبواب الطنف تشرف منه على هذا المنظر الرائع الجميل ، وابن حزم يحتال متنقلا ليدنو منها ويقف من مكانها غير بعيد ، ولكنها لا تحس احتياله ولا تلاحظ قربه حتى تنأى وتنتقل إلى باب آخر . وابن حزم يتبعها رفيقاً دائماً محتالا دائماً متهالكا دائماً ، وهى تبعد كل ما قرب وتنأى كل ما دنا . ثم يقترح مقترح أن تهبط الجماعة

إلى البستان وتجلس على عشبه الأخضر بين ما يزينه من شجر وزهر فهبط القوم ، ويحاول ابن حزم أن يدنو فتنأى صاحبته . ثم يقترح مقترح على الجارية أن تغنى ، وكانت بارعة فى العزف متفوقة فى الغناء ، فتضرب وتغنى ، ويكون هذا كل ما استطاع ابن حزم أن يظفر به من هذه الجارية . ثم تمضى الأيام وتحدث الأحداث وتلم الخطوب ويبعد العهد ، ويعود ابن حزم بعد أعوام إلى وطنه فى قرطبة فيرى هذه الجارية وقد ابتذلتها حوادث الدهر واضطرتها الخطوب إلى أن تتكلف مالا يتكلف أمثالها من المترفات ، وإذا الزهر قد ذوى وإذا الحسن قد غاض ، وإذا الضر قد بدا أو كاد يبدو . ونحن نرى ابن حزم يصور نفسه لنا وقد شَغَفتْ فتاة قلبه كما لم تشغفه فتاة قط ، وقد اتصل الحب بينه وبينها ثم اختطفها منه الموت . فانظر إلى الجزع الذى ليس بعده جزع ، والوجد الذى ليس بعده وجد ، والعذاب الذى لا يشبهه عذاب ، وإذا هو يقضى أياماً لا يضع ثيابه ولا ينعم بطعام أو شراب ، وإذا هو يذكر حبيبته مستيقظاً ويحلم بها نائماً ، ويقول فى حبه لها الشعر أثناء اليقظة وأثناء النوم . وإذا الأيام تمضى حتى تصبح أعواماً وأعواماً ، والسن تتقدم بالفتى قليلاً قليلاً حتى يصبح كهلاً ثم يصير إلى الشيخوخة ، وحبه لتلك الفتاة ما زال شاباً فى قلبه لم يؤثر فيه مر الزمن ولم يستطع السلوان أن يرقى إليه .

فابن حزم إذن يعتمد على الملاحظة المباشرة الحرة الصريحة يلاحظ نفسه وخلطاءه ويلاحظ الناس من حوله ، ولكنه على هذا كله مقيد مقصوص الجناح ، لا يكاد يتعمق ولا يكاد يرتفع ؛ لأنه يفكر كما كان يفكر الناس فى عصره ؛ فأسبابه إلى التعمق والاستقصاء قصار لا تتجاوز به القواعد السطحية أو التى توشك أن تكون سطحية .

وقد رتب ابن حزم كتابه ترتيباً منطقيًّا مقارباً ، ولكنه كره أن ينفذ كتابه على النحو المنطقى الذى رتبه قبل أن يبدأ فى إنشائه ، وآثر أن يخالف بين الخطة المرسومة وتنفيذ هذه الخطة فوضع فصول كتابه حيث اقتضت مناسباتها أن توضع لا حيث اقتضى الترتيب المنطقى أن تكون وهذا أيضاً دليل على أن ابن حزم قد حاول أن يتخفف من أثقال عصره ويتحرر من قيود التفكير التى كانت تمنع معاصريه من الحركة الحرة كما نفهمها نحن الآن ، ولكنه لم يبلغ مما أراد إلا أقله وأيسره .

ودليل آخر على أن ابن حزم أراد أن يتحرر من هذه القيود فذهب إلى أبعد

مما ذهب إليه ستندال ولكنه مع ذلك لم يبلغ ما أراد ، وهو أن ابن حزم كره أن يرجع بحديث الحب إلى ماامتلأت به كتب الأدب من أخبار العشاق والمحبين ، فلم يحفل بكل ما كان من حديث الأعراب ومن غزل الغزلين فى نجد والحجاز ومن تكلف الشعراء بعد ذلك لما تكلفوا من فنون الحب ، وأبى إلا أن يقصر ملاحظته على نفسه وعلى ما رأى وما سمع من معاصريه . على حين لم يكتف ستندال بما رأى وما سمع ، وإنما اعتمد على ماقرأ أيضاً ، وعلى ماقرأ من أخبار القدماء فى جنوب فرنسا نفسها وفى أسبانيا المسيحية والمسلمة ، بل على ماقرأ من كتب العرب أنفسهم ؛ فهو قد عرف كتاب الأغانى ونقل عنه أطرافاً من أخبار الغزلين ومن أخبار جميل وبثينة بنوع خاص . والغريب أننا نُعْجَبُ بابن حزم لأنه أعرض عما كان يعرف من أمر القدماء وأبى أن يعتمد على غير الملاحظة المباشرة . ونعجب فى الوقت نفسه بستندال لأنه طلب ما لم يكن يعرف من حب القدماء ، فاستقصى حب الغزلين فى جنوب فرنسا وتأثرهم فى هذا الحب بحضارة المسلمين فى الأندلس . ثم مضى يستقصى أصل هذا الحب الأسبانى حتى انتهى به «الأغانى» إلى صدر الإسلام ثم إلى العصر الجاهلى . وقد أخطأ فيما فهم من ذلك وأصاب ، ولكنه حاول مالم يتعود أمثاله أن يحاولوه ؛ فنحن نعجب به من هذه الناحية ، كما نعجب بابن حزم لأنه ترك مالم يتعود أمثاله أن يتركوه .

كلا الرجلين قصد إلى إجادة الدرس وإتقان البحث وتعمق الاستقصاء . ولكن أحدهما وفق لما لم يوفق له الآخر لأنه ملك من الوسائل والأدوات وأسباب العلم والثقافة ما لم يتح لصاحبه .

على أن هناك نواحى امتاز بها ستندال ولم تخطر لابن حزم على بال . فكلا الرجلين قد حاول درس النفس الإنسانية من بعض نواحيها . وكلا الرجلين قد اتخذ هذا الدرس وسيلة إلى نقد الحياة الاجتماعية المحيطة به . وكلا الرجلين قد أعطانا صورة دقيقة أو مقاربة لهذه الحياة . ولكن ابن حزم وقف عند هذا الحد ، فأما ستندال فتجاوز النقد إلى الاقتراح . فستندال ينقد الحياة الفرنسية نقداً مرًّا لا يكتفى بذلك بل يعرض لتربية الفتاة فيستخلص عيوبها ويرد إلى العيوب كثيراً من آفات الحب عند الفرنسيين بل عند الاوربيين . ثم هو لا يكتفى بذلك بل يقترح مذهباً جديداً فى تربية الفتاة لتستطيع أن تحب حبًّا صحيحاً صالحاً نقياً ، وتلهم الفتى حبًّا صحيحاً صالحاً نقيًّا . ثم هو يتجاوز ذلك إلى

الزواج ، فينقد نظامه ، ويقترح ألواناً من الإصلاح تقرب المسافة بين الحب والزواج تقريباً بعيداً . وكل هذه أمور لم تخطر لابن حزم ؛ لأنه كما قلت كان مثقلا بقيود عصره مقصوص الجناح لم يستطع أن يتعمق ولا أن يرتفع .

وفى كتاب ستندال لون آخر من ألوان البحث لم يخطر لابن حزم ولم يكن يمكن أن يخطر له . فستندال يبحث عن الصلة بين الحب وبين طبائع الشعوب من جهة ، وبين الحب ونظام الحكم من جهة أخرى . وهذا اللون من بحث ستندال ممتع حقًّا ، ولا سيما حين يعرض لبعض خصائص الشعوب والحكومات . فالحب مقيد بارد شديد الكسل والفتور فى بلاد الإنجليز ؛ لأن طبيعة الإقليم وطبيعة الشعب وطبيعة الحكومة الأرستقراطية ، كل ذلك يقتضى أن يكون الحب الإنجليزى خجلا مستخذياً لا يظهر إلا على استحياء . والحب فى إيطاليا جامح مندفع لا يثبت أمامه شىء ، وهو لا يستخفى ولا يتردد ولا يستخذى ولا يخجل ، وإنما يظهر صريحاً حرًّا كما تظهر الشمس ؛ لأن طبيعة الإقليم الإيطالى والشعب الإيطالى وتفرق السلطان فى إيطاليا لعهد ستندال ، كل ذلك يقتضى أن يكون الحب الإيطالى جريئاً عنيفاً مقداماً . والحب فى فرنسا مغرور منافق لا يكاد يثبت ولا يستقر ؛ لأن طبيعة الشعب الفرنسى والإقليم الفرنسى ونُظم الحكم فى فرنسا بعد انهيار الإمبراطورية ، كل ذلك يقتضى أن يكون الحب الفرنسى مرائياً ثرثاراً لا يقول شيئاً ولا يصور شيئاً . فأين نحن من ابن حزم الذى لم يتجاوز بالحب وطنه الأندلسى ! وقد خطر له مرة أو مرتين أن يعبر بالحب مضيق جبل طارق ففعل ، ولكنه تحدَّث إلينا عن أندلسى باع جارية له كان يحبها لبعض البربر ثم تبعتها نفسه ، ولم يستطع السلو عنها ، ولم يُرد البربرى أن يعفيه من البيع ، فرفع أمره إلى السلطان فى قصة طريفة مؤثرة .

وقد مضى ابن حزم بالحب إلى الشرق فأبعد حتى انتهى إلى بغداد ، ولكنه يحدثنا عن عالم أندلسى انتهى إلى حارة لاتنفذ ، ورأى فى هذه الحارة جارية دلته على أن الحارة غير نافذة ، وكانت الجارية سافرة فراعه حسنها وشغفه حبها ، وخاف على نفسه ودينه الفتنة فسافر إلى البصرة ومات فيها شهيداً لهذا الحب .

فكأن ابن حزم لم يرد أن يعرض فى كتابه لغير الحب الأندلسى ، درسه فى موطنه ، ثم تبعه أحيانا إلى مهاجره فى إفريقية أو فى بغداد .

على أن هناك مسألة هى فيما أعتقد أجل خطراً من كل ما عرضت له فى هذا

الحديث إلى الآن . لماذا ألف ابن حزم كتابه طوق الحمامة ؟ ولماذا ألّف ستندال كتابه فى الحب ؟

أما أيسر الجواب على هذه المسألة فهو أن صديقا لابن حزم طلب إليه أن يضع له هذه الرسالة ففعل ، وأن ستندال أنفق حياته كلها متتبعاً للحب على اختلاف صوره وأشكاله ومواطنه فألف فيه كتابا . ولكن هذا لا يقنعنى ، ويخيل إلىّ أن هناك جوابا آخر قد يكون أجل من هذا خطراً وأبعد منه أثراً . فكتاب ابن حزم وكتاب ستندال لم يقصد بهما إلى الحب فى نفسه ، وإنما قصد بهما إلى الفن ، إلى فن تصوير الحب والتعبير عنه . فقد ألف ابن حزم كتابه فى البلاغة إذن ، وقصد به إلى أن يعلم الشعراء والكتاب والشعراء خاصة كيف يتصورون الحب وكيف يصورونه وكيف يصفونه فى الشعر والنثر . وآية ذلك هذه النماذج الشعرية التى يبثها فى كل فصل من فصول الكتاب ، وهى نماذج ينشئها هو ولا ينقلها عن غيره . وأكبر الظن أنه صنع كثيراً من هذه النماذج خاصة لهذا الكتاب .

وأما ستندال فقد ألّف كتابا فى النقد وفن الجمال ، أراد به إلى أن يشرح أولاً مذاهبه فيما عرض من أمر الحب فى قصصه المختلفة ، وأراد به بعد ذلك أن يعلم القصاص كيف يتصورون الحب وكيف يصورونه وكيف يعرضونه فيما ينشئونه من القصص الطوال والقصار . وآية ذلك هذ النماذج القصصية التى أضافها إلى كتابه بعد أن عرض نظرياته فى الحب .

فنحن إذن أمام كتابين من كتب العلم لم يقصد بهما صاحباهما إلى العبث ولا إلى اللهو ولا إلى مجرد التجربة ، وإنما قصدا بهما إلى التعليم قبل كل شىء .

وقد أعجب القدماء بكتاب ابن حزم ولكنهم لم ينظروا إليه إلا على أنه أثر أدبى ، على أنه غاية فى نفسه لا وسيلة إلى فن الشعر . ولم يعجب المعاصرون لستندال بكتابه فى الحب حين نشره فى أوائل القرن الماضى ، فقد بيع من طبعته الأولى فى عشر سنين بضع عشرة نسخه ، فلما مضى على نشره عشرون عاما أنبأ ناستندال نفسه بأنه لا يظن أن الذين ذاقوه وفهموه قد بلغوا المائة . أما الآن فقد تقدّمت دراسات الحب من نواحيه المختلفة تقدما هائلا ، حتى أصبح كتاب ابن حزم وكتاب ستندال كتابين لهما خطرهما فى التاريخ الأدبى ليس غير ، ولكنه خطر غير قليل .

ط حسين